اخترنا للجندى

دمياط

وكفاحها ضد الاستعمار

بقلم
الرائد / محمد أنور عبد الله

MAR. 2893. 'Abd Allāh, Muḥammad
Amosr
Dimyāt.

اخترنا للجندى

دمياط

وكفاحها ضد الاستعمار

بقلم
الرائد / محمد أنور عبد الله

PORTLAND STATE COLLEGE
LIBRARY

D165
.A2

مقدمة

لجميع بلاد الجمهورية العربية المتحدة ذكر ومجد ـ وليس في أرض الكنانة مكان الا وفيه أثر من آثار البطولة ، وسيرة من سير التضحية والفداء ، فنحن أقدم بلاد الدنيا وأعرقها مدنية على مدى الزمان ، ولكنى اخترت مدينة دمياط لتكون موضوعا أقدمه للقراء ، اذ الموقف الآن بمنطقة الشرق العربى شبيه بما كان عليه فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين (الخامس والسادس الهجريين) وهو العصر الذى كافحت فيه دمياط وخلدت اسمها بكفاحها ضد الغزو الصليبى .

ذلك أننا نرى اليوم فلسطين وقد تسرب اليها الصهيونيون ، واحتلوا مناطق منها تماما ، كما فعل الصليبيون فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

ثم نرى الدول الغربية لا تقنع ببقاء الصهيونية فى أجزاء من فلسطين بل تهاجم مصر سنة ١٩٥٦ بحرا فى بور سعيد ، كما فعل الصليبيون من قبل فهاجموا مصر بحرا ، ودارت معاركهم فى دمياط ولو لم تنشأ بور سعيد حديثا مع انشاء القنـــاة لكانت المعركة فى دمياط .

وكما استعان الصليبيون المقيمون فى فلسطين بدول أوروبا وبيزنطة ـ استعانت اسرائيل بدول أوروبا ، وهى انجلترا وفرنسا .

والشيء الذى أريد أن أبرزه هو أن دمياط هوجمت ثلاث مرات : ـ الأولى سنة ٥٦٥ هـ ، والثانية سنة ٦١٥ هـ ، والثالثة سنة ٦٤٦ هـ ، والتاريخ يعيد نفسه . فلنستعد لغدر الصهيونية فهم مترسمون بخطط الصليبيين ، ولنستعد مع ايماننا بأننا مثل أجدادنا سنحطم كل هجوم ، وسنقتل كل من جاء لقتلنا ، وسنرده خائبا محسورا .

واذا كانت بور سعيد المجيدة قد أثبتت قوتها وعزمها سنة ١٩٥٦ ضد العدوان الثلاثى ، فقد كان لدمياط مجدها الحربى ، وقوتها ضد الغزو الصليبى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) حتى لتستحق أن يخصص لها هذا الكتاب .

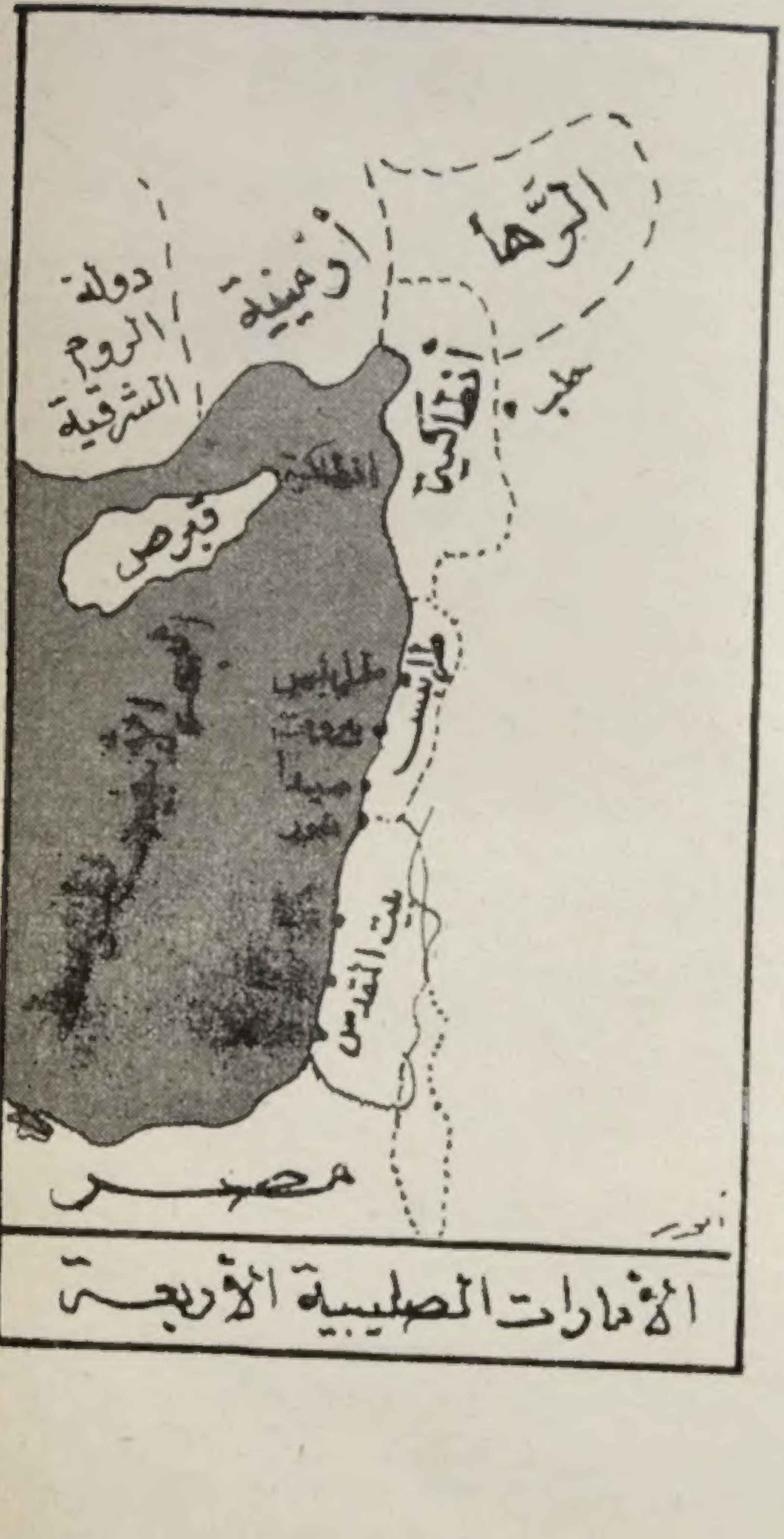

الإمارات الصليبية الأربعة

الموقف في الشرق العربي

في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)

في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) كان الشرق العربى تنتابه موجة من الضعف ويعتريه الوهن والانحلال، فلم تعد دولة واحدة تحت حكم واحد، كما كان فى عهد الخلفاء الراشـــدين وعصر الأمويين بل أصبحت خلافتين - العباسيين فى العراق والفطميين فى مصر والشام، وقد شاختا وانحنى ظهراهما وآذنتا بزوال .

فى هذا الوقت انتهزت دول غربى أوروبا الفرصة السانحة، وانقسام الأمة العربية، فأرسلت جيوشها لسواحل الشام، وأمكنها أن تستولى على بعض الاجزاء الساحلية، وجاءها الامداد يتوالى من دول أوروبا، فتوسعت حتى أصبح لهـــا أربع امارات لاتينية هى امارة الرها فى الشمال، وامارة انطاكية، وامارة طرابلس، وامارة بيت المقدس (فلسطين الآن) وكان دخولها بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ

أدرك نور الدين ما فى عملهم هـــذا من خطر على العرب؛ الشام، وكان أقرب ملوك المسلمين للأرض المغتصبة، فحشد الجيوش وتقدم للجهاد فى سبيل الله يدفعه ايمان قوى وغيرة على الدين يريد طرد الغاصبين، فانتصر واسترد أقرب الامارات الى ملكه وهى ولاية الرها .

وأحدث استعادة العرب لامارة الرها دويا فى أوروبا ، فحشدت الجنود والعتاد وارسلتهما الى الامارات الثلاث الباقية على الساحل وهو ما عرف فى التاريخ باسم (الحرب الصليبية الثانية) .

وتوفى عماد الدين زنكى قبل وصول هذه الحملة الصليبيه ، وتولى من بعده ابنه نور الدين الذى حمل العبء واحتمل الجهاد شابا فى الثلاثين من عمره سنة ٥٤١ هـ ، وتولى امارة حلب ، فتقشف وزهد ونذر حياته لله . فصد هذه الحملة المسعورة عن دمشق ثم هاجم حصونهم فأسر صاحب انطاكية وفى العام الثانى توجه الى قلعة اعزاز ففتحها ، واسر ابن الملك جوسلان ، فارتفعت الروح المعنوية بين العرب ونقل مقر حكمه الى دمشق ، وذكر نور الدين على لسان كل عربى .

فهاجت ثائرة الصليبين وفتحوا عسقلان بعد قتال مرير ؛ فرد لهم نور الدين الضربة بأشد منها وافتتح بعلبك ؛ فأعاد الثقة لنفوس العرب بقدر ما أثار فى قلوب الفرنجة من حقد .

ذعر الصليبيون ، كيف يقوم للعرب قائمة ، ويصدون هجومهم ، ويفتتحون حصونهم ، وهم الذين كانوا فى سبات عميق ، وفرقة شديدة ، وولايات مشتتة ، ونزاع على الحكم ، وتسابق على التيجان ومؤامرات ووشايات ، حتى بين الأخ وأخيه على التاج ، فتلفتوا حولهم يغذون الفتن ، واتجه نظرهم الى مصر - يريدون

دخولها ـ طمعا فى موقعها وخيراتها ؛ واذا استولوا عليها فلا يمكن للعرب أن تقوم لهم قائمة .

أدرك نور الدين ما فى عملهم هذا من خطر على العرب ؛ فتسابق هو والصليبيون على فتحها ثلاث مرات ، وأخيرا انتصرت جيوش نور الدين ، ودخلت مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه الشاب صلاح الدين الأيوبى تلميذ نور الدين ، والذى شهد معه معاركه ضد الفرنجة .

وبهذا أتم نور الدين سياسة والده عماد الدين زنكى وهى توحيد الامارات العربية فى جبهة واحدة تحيط بالعدو الغاصب من كل جانب ، لتوقف توسعه ، وليمكنها الاحاطة به والقضاء عليه .

وكان دخول أسد الدين شيركوه مصر سنة **٥٦٤** هـ وسنة **١١٦٩** م فعادت جيوش الصليبين من حدود مصر خائبة تجر أذيال الخيبة عائدة لاماراتها بالشام .

وباتحاد الشام ومصر أيقن الصليبيون أن وجودهم فى خطر ، وكان أشدهم خوفا من هذه الوحدة الملك عمورى أمير بيت المقدس (فلسطين) ، فأرسل الى ملوك أوروبا يستصرخهم ، ويستنجدهم طالبا الرجال والمال والعتاد ، ولكن هذه البعثة لم تنجح عندئذ ، لأن ملوك أوروبا كانوا فى شاغل عن أمره بمشاكل اماراتهم ، ولما نشأ بينهم من خلاف وحروب .

استصرخ عمورى بعدئذ (مانويل) امبراطور بيزنطه أقرب الولايات الاوروبيه الى الشام ، فاستجاب للدعوة ، ولعله خشى على مملكته من توسع نور الدين ، فأراد أن يطعن القوات العربية وهى ما زالت وليدة قبل أن تنمو ، ويشتد ساعدها ، وتصبح خطرا عليه فضلا على خطرهم على الصليبين المغتصبين لأرض الشام وفلسطين .

معركة دمياط الأولى ٥٦٥ هـ

معركة دمياط الأولى

أرسل مانويل اسطولا بيزنطيا كبيرا بقيادة (اندرونيك كونستفانوس) ، وأمر أن تنضم اليه ستون سفينة حربية أخرى بيزنطية كانت راسية فى جزيرة قبرص .

انضمت قوات عمورى الى القوات البيزنطية فى الفرما ، واتجهوا معا الى دمياط ، فوصلوا اليها فى شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ فى ألف مركب تحمل مائتى ألف جندى من الفرسان والمشاة ، واستطاعوا النزول للبر ، وبدءوا فى حصار المدينة .

وكان قائد جيوش نور الدين فى مصر صلاح الدين الأيوبى ، وذلك بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه .

أرسل صلاح الدين بالخبر الى نور الدين بالشام مستنجدا ؛ فدقت طبول الحرب تعلن الأهلين بقيام الحرب ، وتستحث الهمم وتدعو الغيورين للتطوع والجهاد .

أخذ نور الدين بالشام يجهز الجيوش ، وكلما جهزت طائفة أرسلها لصلاح الدين بسرعة ليذود عن أرض العرب ، وكذلك فعل صلاح الدين فى القاهرة فأرسل ابن أخيه تقى الدين عمر ابن شاهنشاه ، وخاله شهاب الدين الحارمى الى دمياط بما جهز من

من قوات ، ثم خرج صلاح الدين ليقود قواته فى دمياط ، وقد توافر له جند كثيرون من المصريين ، والنجدات التى تأتيه من الشام تباعا .

أما نور الدين فى الشام ، فلم يكتف بامداد صلاح الدين بدفعات كبيرة من الجنود ، بل بدأ يهاجم الفرنجة بالشام ، ويغير على ولاياتهم ؛ ليضطرهم لابقاء جنودهم للدفاع عن هذه الولايات ؛ فلا يرسلوها الى دمياط ، وليرغمهم على سحب قواتهم من دمياط للدفاع عن ولاياتهم التى هددها الغزو ، وهكذا كانت أحسن وسيلة للدفاع عن الهجوم ، وفتح جبهة ثانية فى أرض العدو .

واستمر الحصار حول دمياط ، وقاومت المدينة مقاومة باسلة ، وشجاعة فائقة ، وايمان بالله وثقة بالنفس ، وحب للوطن وتضحية بكل ما يملك المجاهد من مال وروح .

أما قوات الصليبيين والبيزنطيين فكان لديها فقط مؤونة ثلاثة أشهر ، وكانت تظن انها بوصولها الى مصر ستجد الخير الكثير ، والتموين سهلا ميسورا يسلم اليهم مع الطاعة والولاء بمجرد ظهورهم فى الوادى ، ولكنهم وجدوا عكس ما كانوا يظنون ، وجدوا شعبا عصيا يكافحهم فى كل مكان ويمنع عنهم ما يقصدهم بل ويسقيهم كئوس الموت ألوانا .

وهطلت الأمطار ليلا ونهارا فتحولت معسكرات الصليبيين

والبيزنطيين الى طين ، وأتلفت مئونتهم مما اضطرهم الى حفر الحفر . لتجميع المياه بعيدا عن الخيام .

تناقصت المؤن ، ولا امداد بالرجال ولا العتاد ، وبدأ يهدد قواتهم الجوع ، وأخبار تأتيهم من ولاياتهم بالشدة ، وبأن نور الدين يهاجمها ، ويغير عليها ويستولى على خيراتها .

اجتمع عمورى وقائد القوات البيزنطية ليتشاورا فيما يفعلان . فرأى القائد البيزنطى أن يهجم على دمياط ويستولى عليها ، ويتجه الى القاهرة ، ولكن عمورى الذى ذاق مرارة الهزيمة مرارا على يد المصريين والشوام لم يوافق على هذا الرأى ، وانقضى اجتماعهم على خلافهم فى الرأى وتفرق كلمتهم .

عقد القائد البيزنطى مجلسا من قادة قواته لبحث الموقف واستقر رأيهم على أن تنفرد قوات البيزنطيين بالهجوم على دمياط .

أثار ذلك شكوك عمورى وخشى أن ينفرد البيزنطيون بالهجوم على مصر ، والاستيلاء عليها ويصبح هذا خطرا يهدد مملكته : كيف يستنجد عمورى بالبيزنطيين ، فينفردوا بالعمل دون رأيه .

وهكذا بدأ الخلاف وأخذ كل منهم يشك فى نوايا حليفه ، واتصل عمورى بالمصريين يحذرهم مما سيقوم به البيزنطيون ليفسدوا عليهم خطتهم .

وبدأ اليأس يدب فى قلب عمورى عندما علم بهجمات نور الدين

على ولايته بيت المقدس نفسها ، لأن عودته السريعة لولايته لتدفع عنه
هي أهم ما يشغله .

أما في دمياط فنجد قوات صلاح الدين وأهل دمياط يدافعون عنها وقد قلت مؤونتهم ولكنهم صابرون على الجهاد ، وعلى الجوع يسقون العدو يوما كأس الردى ، ويجعلون مقامه عسيرا صعبا ، ويعلمون من الصليبيين بخطط المرتضين ، فيحبطونها واحدة بعد الأخرى .

واستمر الحصار ٥٣ يوما ووجد الصليبيون وحلفاؤهم البيزنطيون أن بقاءهم مستحيل . فاضطروا للانسحاب في يوم ٢١ من ربيع الأول سنة ٥٦٥ هجرية – ١١٧٠ م .

وكانت خسائر الفرنج في هذه الحملة المهزومة تدعو للإسالة كثيرة ، وقتل ومات من رجالهم الكثير نتيجة القتال والمرض الذي أصابهم ، والجوع ، وعند انسحابهم أحرقوا معداتهم الثقيلة والمجانيق .

وفي عودتهم بالبحر الأبيض أصابتهم عاصفة عاتية أغرقت الكثير من سفنهم ورجالهم ، قال المؤرخ ابن الأثير سخرية وتهكما تشبيها الحملة على دمياط بالنعامة خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين .

انتصرت دمياط بسبب حصانتها وصبر وشجاعة أهلها وقيامهم بالمقاومة الشعبية الصادقة وبنجدات الموالية التي وفدت اليها من الشام وكذلك بإخلاص أهل القرى المحيطة بدمياط التي منعت المؤن عن الفرنج .

وبالروح المعنوية العالية التي تحلى بها جميع هؤلاء لا السلاح يرهبهم ، ولا كثرة العدو تخيفهم ولا قلة المؤن عن المدافعين داخل المدينة المحصورة تؤثر في ايمانهم بالله وبالنصر .

الايمان الذي دفع صلاح الدين للاشتراك على القتال في دمياط – والايمان الذي جعل نور الدين يجهز الجيوش ويرسلها الى صلاح الدين أرتالا – والايمان الذي دفع نور الدين للاغارة على الامارات الصليبية – مساهمة منه في المعركة – والذي جعله يقول (اني لأستحي أن يراني الله مبتسما والمسلمون يحاصرهم الفرنج في دمياط .)

الايمان بالله الذي هزم به نور الدين أعداءه – فوقف وحده وبجواره بعض قواده على تل عال يشرف على المعركة بالشام في حين أن جيشه يفر أمام الفرنج ، فظن قادة الفرنج وجنوده لا يتحرك ولا يفر مع الفارين ، واعتقدوا أن فرار العرب خدعة لهم ولا يعقل أن يبقى قائد مكانه الا لسر خطته الموضوعة لابادتهم ففر الصليبيون ، وما علموا الا بعد المعركة انه ثبات المؤمن الذي امتثل لقول الله (يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) .

وتفتح دمياط أبوابها بعد زوال الفرنج عن حصارها لتدخلها المؤن والأقوات يهلل أهلها فرحا ويكبر شيوخها تعظيما لله وتقام الأفراح والأذكار . ويظفر صلاح الدين بالخبر والبشرى فجمع

الاقطار العربية ، فعم الفرحة جميع الاقطار وبهرهم نشوة الفرح ، فيهنىء الرجل الرجل الذى يعرفه والذى لا يعرفه ، ودموع الفرح تنهل من المآقى (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) .

وكان حصار دمياط أول شدة تلقاها صلاح الدين فى شبابه ، فلما نجح فى المقاومة اهتم بتحصين هذا الثغر ، واستكمال ما كان ينقصه من وسائل الدفاع ؛ فأمر بحفر خندق حول دمياط لحمايتها ، وبترميم أسوارها ، وبنى بها برجا جديدا ، وجدد سلسلتها وبنى عند السلسلة جسرا لحمايتها ، وارسل اليها السفن لتدفع عنها أى هجوم وملأ حصون دمياط بالمقاتلين فزاد عددهم عن ذى قبل وضاعف من النفقة عليهم .

وبهذه المعركة أثبت صلاح الدين كفايته الحربية ، وكانت أولى خطواته الى المجد ، وأصبح نور الدين فى الشام خطرا يهدد الصليبيين ، فقواده تحيط بهم من الشمال والشرق والجنوب ، فاذا قام العدو مهاجما من أى مكان منها طعنه العرب فى عدة أماكن ، ولا يلبث أن ينكمش فى عقر داره كالذئب الدنىء يلعق جرحه .

وبالروح المعنوية العالية التى تحلى بها جميع هؤلاء لا السلاح يرهبهم ، ولا كثرة العدو تخيفهم ، ولا قلة المؤن عن المدافعين داخل المدينة المحاصرة تؤثر فى ايمانهم بالله وبالنصر .

الايمان الذى دفع صلاح الدين للاشراف على القتال فى دمياط ـ والايمان الذى جعل نور الدين يجهز الجيوش ويرسلها الى صلاح الدين أولا ـ والايمان الذى دفع نور الدين للاغارة على الامارات الصليبية ـ مساهمة منه فى المعركة ـ والذى جعله يقول (انى لأستحى أن يرانى الله مبتسما والمسلمون يحاصرهم الفرنج فى دمياط .)

الايمان بالله الذى هزم به نور الدين أعداءه ـ فوقف وحده ومعه وبجواره بعض قواده على تل عال يشرف على المعركة ، تماما فى حين أن جيشه يفر أمام الفرنج ، فظن قادة الفرنج وجنوده لا يتحرك ولا يفر مع الفارين ، فاعتقدوا أن فرار العرب خدعة لهم ولا يعقل أن يبقى قائد مكانه الا ليتم خطته الموضوعة لابادتهم ففر الصليبيون ، وما علموا الا بعد المعركة انه ثبات المؤمن الذى امتثل لقول الله (يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) .

وتفتح دمياط أبوابها بعد زوال الفرنج عن حصارها ليدخلها التموين والأقوات يهلل أهلها فرحا ويكبر شيوخها تعظيما لله وتقام الأفراح والأذكار . ويبعث صلاح الدين بالخبر والبشرى تجمع

الأقطار العربية ، نعم الفرحة جميع الأقطار وبهرهم شدو الفرح ، فيهنئ الرجل الرجل الذى يعرفه والذى لا يعرفه ، ودموع الفرح تنهال من المآقى (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) .

وكان حصار دمياط أول شدة تلقاها صلاح الدين فى شبابه ، فلما نجح فى المقاومة اهتم بتحصين هذا الثغر ، واستكمال ما كان ينقصه من وسائل الدفاع ؛ فأمر بحفر خندق حول دمياط يحميها ، وبترميم أسوارها ، وبنى بها برجا جديدا ، وجدد سلسلته وبنى عند السلسلة جسرا يحميها ، وأرسل اليها السفن لتدفع عنها أى هجوم ، وملأ حصون دمياط بالمقاتلين وزاد عددهم عن ذى قبل وضاعف من النفقة عليهم .

وبهذه المعركة أثبت صلاح الدين كفايته الحربية ، وكانت أولى خطواته الى المجد ، وأصبح نور الدين فى الشام خطرا يهدد الصليبيين ، فقواده تحيط بهم من الشمال والشرق والجنوب ، فاذا هم العدو مهاجما من أى مكان منها طعنه العرب فى عدة أماكن ، ولا يلبث أن ينكمش فى مقر داره كالذئب الدنىء يلعق جرحه .

الفترة ما بين موقعتي دمياط
الأولى والثانية

من ٥٦٥ هـ ـ ٦١٥ هـ ـ ١١٧٠ م ـ ١٢١٨ م

مقدمه :

انتهت معركة دمياط الأولى سنة ٥٦٥ هـ ـ ١١٧٠ ميلاديه وصلاح الدين شاب على رأس الجيوش المصريه .

وتوفى الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى مصر سنه ٥٦٧ هـ ، واستقل صلاح الدين بحكم مصر ، وذاب عنصر الفاطميين سريعة وتوفى نور الدين سنة ٥٦٩ هجريه ، فظهر الطامعون فى الحكم والمستأثرون بالجاه والسلطان ، ولكن صلاح الدين عمل بكل حيلة وكياسة لرأب الصدع ، وتوحيد الأقطار العربيه ، ذلك الحلم الذى عاش له عماد الدين زنكى ، ومن بعده ابنه نور الدين وحققه صلاح الدين بعد خمسة عشر عاما قضاها فى لم الشمل ، وجمع الأجزاء المبعثرة ، وبعث الروح المعنويه وإيقاظ النيام ، وتنبيه الغافلين وتحريك همم القاعدين ، وبلغ مآربه سنـــه ٥٨٢ هـ حين أصبحت الدوله العربيه جبهه قويه متحده تمتد من العراق شرقا الى برقة غربا ، ومن الموصل وحلب شمالا الى النوبة واليمن جنوبا ، وعندئذ أمكن صلاح الدين أن يبدأ جهاده ضــد الغزاه المحتلين لفلسطين والشام وهم الصليبيون .

موقف الصليبيين :

والمعروف أن طوال هذه المدة كان الصليبيون لا يهدأ لهم بال إلا بمناوشة جيوش العرب ومهاجمتهم ، والسطو عليهم ، فيلقون في كل مرة هزيمة تردهم متقهقرين حتى كانت سنة ٥٧٩ هجرية ، فعقدت هدنة مداها أربع سنوات .

ومات عمورى سنة ٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م ، وسارت الأمـور في الإمارات الصليبية من سيء إلى أسوأ : أشتات متفرقة ، مجموعات من كل أقطار أوروبا ، تتباين في الطباع والعادات والرأى ، شعب في ظاهره ولكن حقيقته شتات وفرقة ، وكانت هجماتهم ومناوشاتهم مع العرب تنقص كل يوم من عـددهم ، وتطيح برقابهم ، وكانت دائمة الحاجة لسد النقص من الأفراد والأموال ، تستنجد بأوروبا لإمدادها وتعويض خسائرها ، ولكن حماسة أوربا التي كانت عـلى أشدها في أول الحرب الصليبية فترة من الزمن بردت وبعـد أن كانت الحمـلات تأتي متوالية سريعة متعصـبة عطشى للقتـال ، أصبحت مع الزمن تقل رويدا رويدا ، حتى ان الوافدين في نهاية القرن الثاني عشر من أوروبا ، لم يكن لديهم أي حماسة بالقياس للوافدين في القرن الحادي عشر عند بداية الحرب الصليبية .

وهكذا نجد معسكر العرب يقوى بالوحدة ، ومعسـكر الصليبيين يفتر ويضعف ، وتقل عنه الإمدادات والمعونة من أوربا ، وتبرد معه حمية الدعوة الدينية التي اصطنعها ، ويظهر بين الأهالي

عناصر الفرقة والتعصب لأمله ؛ وحرصه دائماً لأوربا التي لا تحسن كما كانت في أول الحـــرب ، ومقيمة غير آمن في أرض غريبة ومحاطون من كل جانب بالعرب ؛ يهددونهم بلا هوادة ؛ فضعفت روح الصليبيين المعنوية الى الحضيض •

أما العرب فإن هزائمهم السابقة امام الصليبيين التي أدت الى اقامة ولايات صليبية ، قد أذهلت عقولهم ، وأثارت حميتهم ، وحركت غيرتهم القومية والوطنية والدينية _ كيف استباح العـــدو أرضهم وأعراضهم ؟ كيف أقام ملكه على حرمهم ؟ وكيف يطئون بيت المقدس وهو ثاني الحرمين وأولى القبلتين ؟ أين كانوا حتى تمكن العدو منهم ؟ كل هذا دفعهم الى تقوية مواطن ضعفهم و نسيان الخلافات التي بينهم وجعلت صلاح الدين وحد هذه الرقعة العربية في مصر و سوريا استعداداً لضرب العدو الضربة التي تقصم ظهره •

كانت الهدنة معقودة سنة ٥٧٩ هـ _ ٥٨٣ هـ • ١١٨٤ _ ١١٨٨ م بين العرب والصليبيين ولكن ارناط اجترأ على نقضها سنة ٥٨٢ هـ وكان ملكاً على الكرك في جنوبي فلسطين بأن اعترض وقطع احدى قوافل صلاح الدين فقتل من قتل ، وأسر من أسر ، ونقل الخبر الى صلاح الدين بأن أرناط هذا اجترأ على الأسرى وهو يهددهم بقوله : (فليأت محمدكم ليخلصكم) •

استقدم صلاح الدين قواته الوافدة من جميع أنحاء مملكته وجمعهم في دمشق ، وجمع الصليبيون قواتهم بقيادة ارناط صاحب

الكرك ، وريموند صاحب طرابلس وجاى ملك بيت المقدس ، وكانت موقعة حطين ، وظهرت قوة صلاح الدين في امور الحركة البارعة في الميدان حتى خرج ريموند صاحب طرابلس بفرسانه وآثر الفرار والعودة الى طرابلس ، وانقض صلاح الدين على ما بقى من قوات الصليبيين ، وأحرق العشب المحيط بمعسكر العدو ، وأخذت النار تلفح وجوههم وتحرق مهماتهم ووهج الشمس يزيد حرارة مايلبسون من دروع حديدية ، وانقض صلاح الدين عليهم بعد ذلك بجيوشه المتعطشة للجهاد في سبيل الله ، فقتلت منهم الآلاف وأسرت الباقين ، حتى قال فيهم المؤرخ العربي ابن الأثير (وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لايظن ان هناك قتلى ، فاذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى) .

وكانت هذه المعركة تجمع من الصليبيين أكبر عدد استطاعوا جمعه من اماراتهم المختلفة ، ومعظم قوادهم ورؤسائهم وملوكهم ، ووقع منهم في الاسر حتى صاحب بيت المقدس ؛ وأرناط صاحب الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده لجرأته على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهاجم صلاح الدين عكا واستولى عليها سنة ٥٨٣هـ (يوليو ١١٨٧ م) ثم سقطت بعد ذلك كل المدن الساحلية من بيروت شمالا حتى يافا جنوبا ، ولم يبق منها الا مدينة (صور) حيث تجمعت بها فلول كل الجيوش المهزومة ، فحاصرها ببعض قواته ، واتجه جنوبا لفتح مدينة عسقلان .

عناصر التفرقه والتعصب لأسله ؛ وجبهه دائمه لأوربا التي لاتتحمس
كما كانت في أول الحرب ، ومقام غير آمن في أرض غريبه
ومحاطون من كل جانب بالعرب ؛ يهددونهم بالاباده التامه ؛ فضعفت
روح الصليبين المعنويه الى الحضيض .

أما العرب فان هزائمهم السابقه امام الصليبين التي أدت الى
اقامه ولايات صليبيه ، قد أذهلت عقولهم ، وأثارت حميتهم ، وحركت
غيرتهم القوميه والوطنيه والدينيه - كيف استباح العدو أرضهم
واعراضهم ؟ كيف أقام مملكه على حرمهم ؟ وكيف يطئون بيت المقدس
وهو ثاني الحرمين وأولى القبلتين ؟ أين كانوا حين تمكن العدو منهم ؟
كل هذا دفعهم الى تقويه مواطن ضعفهم ونسيان الخلافات التي بينهم
وجعلت صلاح الدين يوحد هذه الرقعه العربيه في مصر ويعد العده
لضرب العدو الضربه التي تقصم ظهره .

كانت الهدنه معقوده سنه ٥٧٩ هـ - ٥٨٣ هـ . ١١٨٤ - ١١٨٨ م
بين العرب والصليبين ولكن اجترأ ارناط على نقضها سنه ٥٨٢ هـ
وكان ملكا على الكرك في جنوب فلسطين بأن اعترض قافله احدى
قريبات صلاح الدين فقتل من قتل ، وأسر من أسر ، ونقل الخبر
الى صلاح الدين بأن أرناط هذا اجترأ على الأسرى وهو يهددهم
بقوله : (فليأت محمدكم ليخلصكم) .

استقدم صلاح الدين قواته الوافده من جميع أنحاء مملكته
وجمعهم في دمشق ، وجمع الصليبيون قواتهم بقياده ارناط صاحب

الكرك ، وريموند صاحب طرابلس وجى لوزجنان صاحب بيت المقدس ، وكانت موقعة حطين ، وظهرت قوة صلاح الدين في المعركة الحربية البارعة في الميدان حتى خرج ريموند صاحب طرابلس بقواته وآثر الفرار والعودة الى طرابلس ، وانقض صلاح الدين على من بقى من قوات الصليبيين ، وأحرق العشب المحيط بمعسكر اعدائه ، وأخذت النيران تلفح وجوههم وتحرق خيامهم ووهج الشمس يزيد حرارة مايلبسون من دروع حديدية ، وانقض صلاح الدين عليهم بعد ذلك بجيوشه المتعطشة للجهاد فى سبيل الله ، فقتلت منهم الآلاف وأسرت الباقين ، حتى قال فيهم المؤرخ العربى ابن الأثير (وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن ان هناك قتلى ، ومن رأى القتلى حسب أنهم لم يكن هناك أسرى) •

وكانت هذه المعركة تجمع من الصليبيين أكبر عدد استطاعوا حشده من اماراتهم المختلفة ، ومعظم قوادهم ورؤسائهم وملوكهم ، ووقع منهم فى الأسر جاى صاحب بيت المقدس ، وأرناط صاحب الكرك الذى قتله صلاح الدين بيده لجرأته على الرسول صلى الله عليه وسلم •

وهاجم صلاح الدين عكا واستولى عليها سنة ٥٨٣ هـ (يوليو ١١٨٧ م) ، ثم تساقطت بعد ذلك كل المدن الساحلية من بيروت شمالا حتى غزة جنوبا ، ولم يبق منها الا مدينة (صور) حيث تجمعت بها فلول كل الجيوش المهزومة ، فحاصرها ببعض قواته ، واتجه جنوبا ففتح مدينة عسقلان •

ثم أمر قائد اسطوله فى مصر (حسام الدين لؤلؤ) بحراسة الشواطىء بأسطوله ، ليكون فى مأمن من امدادات أوروبا وبدأ فى حصار بيت المقدس ، وكانت تحوط بها الاسوار والحصون المنيعة؛ فأقام المجانيق حولها ، وبدأ القتال عنيفا .

وأبدى كلا الطرفين استماته فى القتال ، وبعد أسبوع واحد ، طلب الصليبيون التسليم ، فقبل صلاح الدين تسليمهم وخروجهم بعد دفع الفدية : الرجل ١٠ دنانير والمرأة ٥ دنانير والطفل ديناران وسمح للمسيحيين الشوام واليونان بالبقاء فى المدينة ، وسمح بخروج بطريرك المدينة بكل أموال الكنائس فلم يدفع الا عشرة دنانير عن نفسه .

ودخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣ هـ وهو يوافق يوم الاحتفال بليلة الاسراء عند المسلمين ؛ التى يقول الله فيها (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله ؛ لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) ق.ك .

وأقيمت صلاة الجمعة بالمسجد الاقصى بين التهليل والتكبير ، ودموع الأفراح تنهمر من عيون المؤمنين ، بعد أن كانت قد تعطلت مدة ثمانية وثمانين عاما .

وأبلغ نبأ استرداد بيت المقدس لجميع الاقطار العربية ؛ فعمها

الفرح والبشر وأنشد شعراؤها الاشعار ، ومنهم الشــاعر المصرى (الشريف الجوانى) فقال :

اتــرى منــاما مــا بعينى ابصر
القــدس بفتــح والفــرنجه تكسر

ومليكهم فى القيــد مصــفود ولم
يــر قبــل ذاك لهــم مليــك يؤسر

قــد جــاء نصر الله والفتــح الذى
وعد الرســول فسبحوا واســتغفروا

وبدأ صلاح الدين فى تعمير المدينه والمسجد ، ونقل اليــه المنبر الذى كان نور الدين رحمه الله قد أمر بصنعه منذ سنوات ، لبضعه فى المسجد بعد استعادة المدينه ، وأنشأ المــدارس وأقام بيمارستان (مستشفى لعلاج المرضى) .

وبهذا استعاد الناصر صلاح الدين امارة بيت المقـدس ، كما استعاد عماد الدين زنكى من قبله امارة الرها ، ولم يبق من امارات الصليبيين غير امارة طرابلس وامارة انطاكيا .

ومات الناصر صلاح الدين ، ولكل أجل كتاب ، والــكل سيموت ، ولكنه ترك للعالم أثرا خالدا خلود الزمن ، رجل جمع شمل الأشتات ، ووحد المتنافرين ، ودفعهم الى طريق الخير والبر

محافظا على تقاليدهم النبيلة ، ممجدا لشعائر دينهم ، عفوا عند المقدرة ، يقابل الإساءة بالإحسان ، مؤمنا بالله ، والتسامح والإيمان توءمان أحب موات قلب المسلمين ، وأفنانهم بعد عزة ، فحق على التاريخ أن يدون اسمه بين قواد العالم الأمجاد ، وحسبه [illegible] العرب على كثرتهم ، إلا أن صلاح الدين من أبرزهم .

معركة دمياط الثانية
٦٤٦ - ٦٤٨ هـ

معركة دمياط الثانية

بعد هزيمة الصليبيين في بيت المقدس تدبروا امرهم ، فوجدوا ان اصل بلائهم هو انضمام مصر الى البلاد العربية في دولة واحدة ؛ فتمكن بذلك صلاح الدين من مقاتلتهم والقضاء على دولتهم في دمياط وحطين والمدن الساحلية وبيت المقدس والشوبك والكرك وغيرها ؛ فقر رأيهم على مهاجمة مصدر هذه القوة وهي مصر ، فاستنجد صليبيو طرابلس وانطاكيا بملوك اوربا سائلين المدد من الرجل والعتاد والأموال محذرين أنهم على شفا الانهيار ان لم تنجدهم أوربا ، فوصلتهم الامدادات ، وقامت الحملة من عكا في اسطول كبير يحمل ٧٠ ألف فارس وأربعمائة الف من المشاة بقيادة حنا دي بريين ملك بيت المقدس الذي كان اطلقه صلاح الدين .

وصلت الحملة الى شواطىء دمياط ونزلت بالبر الغربي (رأس البر) يوم الثلاثاء الرابع من ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ (يونيه عام ١٢١٨ م) ، وعسكرت جموعهم بالشاطىء ، وحصنوا معسكرهم وحفروا حوله خندقا وأحاطوه بسور وستائر .

أما دمياط فكانت مدينة حصينة تحيط بها الأسوار والقلاع والأبراج الضخمة ، ويحيط بأسوارها الخندق الذى حفره صلاح الدين ؛ وعند مدخل فرع دمياط أقيم برج مشحون بالجنود ؛وتمتد منه سلاسل حديدية متينة مربوطة الى برج مقابل على شاطىء دمياط

وذلك لمنع سفن الأعداء من دخول فرع دمياط وللوصـــــول الى المدينة .

حاول الفرنج الاستيلاء على البرج وهو مفتاح المدينة ، فأقاموا أبراجا خشبية عالية على سفنهم وحاولوا الاقتراب بهـا من البرج لمحاربة جنده ، ولكنهم ردوا خائبين أكثر من مرة ، وظل يقـاوم البرج عدة أشهر ، وكانت هذه المدة كافية لاستعداد الملك الكامل لمواجهة الزحف الفرنجي فخرج بجيشه متجها للميدان ، وأرسل أسطوله لدمياط ونادى منادي الحرب في القرى والمدائن ، وأمر الولاة بجمع الغزاة ، واستنجد بوالده الملك العادل بالشام ، فأرسل اليه المدد أفواجا ، وعسكر الملك الكامل بمنزلة العادلية بجوار دمياط في حين أن البرج يقاوم الفرنج ويمنع سفنهم من دخول فرع دمياط وأقام الفرنج برجا ضخما على سفينة كبيرة (بسطة) ، وأسندوه الى برج دمياط ، وقاتل الجند المصريون قتالا مستميتا الى آخر رجل ، وأخيرا استولى الفرنج على البرج ، بعد ان قتل منهم الكثير وبعد أن أدى البرج أجل خدمة لدمياط ، وهي تعطيل الفرنج أربعة أشهر ، كانت كافية لاستعداد دمياط .

وسمع الملك العادل بسقوط البرج فمات بعد أيام حزنا وأسفا فتولى الملك بعده ابنه الملك الكامل ؛ وكان قد وصل قرب دمياط كما ذكرنا .

أما الفرنج فبعد استيلائهم على البرج قطعوا السلاسل ودخلت سفنهم ؛ فرع دمياط ، ولكن الملك الكامل أقام جسرا لمنعهم ، وسد

طريق السفن ؛ ولكنهم قتلوا المصريين حتى قطعوا الجسر وقيل ان تكاليف البرج والجسر زاد عن ٧٠ الف دينار على رخص الاسعار يومئذ .

أمر الملك الكامل باغراق السفن فى النيل لسده أمام السفن الصليبية ؛ فحفر الفرنج خليجا كان يجرى فيه النيل قديما ويعرف بالرمل ويسمى الخليج الأزرق وتقدموا فيه بسفنهم ووصلوا الى مدينة بورا حيث نزلوا على البر الغربى فى مقابلة منزلة العادلية - حيث معسكر الملك الكامل وجيشه . وبذلك صار الفرنجة يقطعون كل طريق للمدد الآتى .

ودمياط ما زالت أبوابها مفتوحة لأهليها تحفظها أســوارها وتأتيها الامداد من كل مكان وبينها وبين العدو فرع النيل .

أما معسكر الفرنجة فالبر الغربى للنيل وتهاجمهم العربان ليلا وتخطفهم أو تقتلهم (حتى امتنعوا من الرقاد خوفا من عاديتهم) .

وقد من ريح قطعت مراسى احدى سفن الفرنج فساقت فى النيل يقول المقريزى (وكانت من عجائب الدنيا ، فمرت الى بر المسلمين فأخذوها ؛ فاذا هى مصفحة بالحديد لا يعمل فيها النار ، ومساحتها خمسمائة ذراع ؛ فكسروها فاذا فيها مسامير زنة الواحد منها ٢٥ رطلا) .

الفتنــة :

فى هذا البلاء القائم والعدو يطأ أرض الكنانة والناس تنادى

حتى على الجهاد ، يتآمر أحد قادة المصريين عماد الدين أحمد بن المشطوب مع عدد من قواد الجيش بعزل الملك الكامل وتعيين بدله أخيه الملك الفائز • فأسخطه فكره وخصوصا في هـــذا الــوقت العصيب • فعلم بذلك الملك العادل ، فهرب ليلا من معسكره ؛ واتجه الى أشموم طناح جنوب بحر أشموم طناح (البحر الصـــغير) • فاستيقظ الجند صباحا فلم يجدوا مليكهم فتركوا أمتعتهم وخيامهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان •

عبر الفرنج النيل بلا مقاومة في يوم الثلاثاء السادس عشر من ذي القعدة ، ونهبوا معسكر المصريين المهجور بمنزلة العادلية وحصنوا معسكرهم وحفروا حولهم خندقا ، وبنوا أسوارا واتجهوا الى دمياط وأحاطوا بها فأغلقت أبوابها على أهلها ومعهم ٢٠ ألف مقاتل ؛ وصمد الجميع للقتال وقاوموا مقاومة باسلة ، وطال الحصار وبدأت المؤونة تقل فغلت الأسعار حتى قيل ان رطل السكر بأربعين دينارا والدجاجة بثلاثين وراوية الماء بأربعين درهما وصبر الجميع من أهل المدينـــة والمقاتلون على هذا الحصار الذي طال ستـــــة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما وكان السلطان خلالها يتصل بأهل دمياط ليشـــجعهم فيرسل لهم رجلا من جنوده يسمى شمائل الحموي يسبح في النيل حتى يصل مدينة دمياط فيعدهم بوصول النجدات واشتد بأهلهـــا الضيق وكادت تعدم الأقوات وأصاب أهلها المرض وامتلأت الطرق والمساكن بالموتى فاقتحم الفرنج أسوارها ودخلوها يوم الثلاثاء من شهر شعبان سنة ٦١٦ هـ (نوفمبر ١٢١٩ ميلادية) ، فقتلوا وأسرفوا

فى القتل وعاثوا فيها فسادا ، ثم أخذوا يحصنون المدينة وأسوارها متخذينها قاعدة لهجومهم نحو الجنوب .

أرسل الملك الكامل الى ملوك الايوبيين من اخوته واقاربه بالشام مستنجدا ، فوصله أخوه الملك المعظم عيسى بجيش كبير ، فلما علم بمؤامرة أحبه الفائز والقائد بن المشطوب ابعدهما للشام فهدأت الفتنة وتوالت النجدات من حماة بقيادة الملك المظفر الثانى (ابن أخت الملك الكامل) ، كما وصلت نجدة أخرى بقيادة الملك الأشرف أخى الملك الكامل فتم عدد الفرسان العرب ، أربعين ألفا فقويت روحهم المعنوية وعمهم الأمل فى استرداد دمياط ، وأما الصليبيون فوصلتهم امدادات كثيرة وأخذوا يتقدمون نحو الجنوب ونزلوا أمام بحر أشموم طناح ففصل بينهم وبين معسكر العرب البحر .

وأرسل الملك الكامل اسطولا نهريا بقيادة الامير بدر الدين بن حسون فى بحر المحلة (وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها ويتصل بها ثانية شمال طلخا) ففاجأ الفرنجة بظهورها ومنع مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالمؤونة من الوصول الى معسكرهم (قرب المنصورة حاليا) ودار قتال بين الفريقين وأظهر المصريون والشوام فيه براعة فائقة واستولوا على ٩ سفن كانت معدة للفرنج تحمل اليهم المؤن من دمياط وكذلك أسروا ألفين ومائتى مقاتل وكان النيل فى فترة الفيضان وعبر بعض المسلمين الى حيث معسكر الفرنجة وحفروا مكانا بجسر النيل فأغرق ماء النيل أكثر تلك الارض وحال

بين الفرقتين ومدينة دمياط ولم يبق لهم منفذ سوى طريق ضيق فنصب السلطان الكامل الجسور عند أشموم وعبرت جنوده وملكت الطريق التى يسلكها الفرنج الى دمياط وبهذا قطع اتصالهم برا وبحرا عن دمياط فاضطروا الى مفاوضة الملك الكامل على أن يتركوا دمياط مقابل أن يعاد اليهم القدس وعسقلان وطبريه وجبله واللاذقيه والكرك وغيرها من المدن التى كان صلاح الدين قد استردها ؛ وقبل الملك الكامل بعض هذه الشروط ورفض اعادة الكرك والشوبك (جنوب النقب من أرض فلسطين) لمكانتها الحربيه فاصروا على مطالبهم ولكنهم لما علموا بوصول أسطول الملك الكامل وقطعه الطريق على سفنهم ما بين دمياط ومعسكرهم بأشموم وان فى ذلك الحصار مهلكهم فهدموا الخيام والمجانيق وأشعلوا فيها النار واتجهوا يائسين لمحاربة العرب لفتح طريق للعودة لدمياط فحال بينهم الوحل فسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط دون قيد أو شرط .

واحتار الكامل : أيجيبهم الى مأمنهم أم يقاتلهم حتى النصر النهائى تأديبا لهم وعبرة لمن بعدهم ؟ وأشار البعض أن يعطى الفرنج الأمن ما داموا قد استسلموا (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (قرآن كريم) وتغلب هذا الرأى مخافة ان يصل للفرنج مدد جديد . وتم اتفاق الطرفين على تقديم كلا الطرفين رهائن حرب فقدم الفرنج ٢٠ ملكا رهينة عند الملك الكامل وأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين وبعض القواد .

واستقبل الملك الكامل وحوله اخوته وقادته هؤلاء العشرين

ملكاً فى حين خرج قسس الفرنج ورهبانهم لدمياط يسلمونها للمصريين فى التاسع والعشرين من رجب سنة ٦١٨ هـ • واطلق كل منهما رهائن الآخر واتفق الفريقان على هدنة ثمانية أعوام على أن يطلق كل منهما ما عنده من الأسرى ووصل الملك الكامل دمياط ومعه اخوته وأقاربه من ملوك الشام والقادة والجند وافراد الشعب فى يوم من الايام المحفلة ودخلوها مهللين مكبرين وأقيمت الزينات والأفراح كما أرسلت البشائر الى انحاء البلاد العربية والاسلامية فأقيمت الأفراح فى كل مكان والقيت القصائد وبارى الشعراء ومنهم

فما برحت سمر الرماح تنوشهم
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا

بدا الموت من زرق الأسنة احمرا
فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا

وما برح الاحسان منا سجية
نورثها من صيد آبائنا الأبنا

وقد عرفت أسيافنا ورؤوسهم
مواقعها منا فان عاودوا عدنا •

المصطلحات
مراكب الصليبيين
مراكب المصريين
أبراج
معارك
سير المصريين
سير الصليبيين
معسكر المصريين
معسكر الصليبيين
بوره
فارسكور
بحر أشموم طناح
أشموم طناح
بحر المحلة
المنصورة
معركة دمياط الثالثة
٦٤٦-٦٤٨هـ

معركة دمياط الثالثة

٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م

مضى على هزيمة الصليبيين فى دمياط سنة ٦١٨ هـ • عشرات السنين ولم ينسوا مرارة الهزيمة وما أورثتهم من حقد وغل فتفكروا فى العودة للانتقام ولكن هذه المرة تقوم بها فرنسا تبغى الاستيلاء على مصر التى كانت حجر عثرة فى سبيل تحقيق أطماعهم فى اغتصاب بيت المقدس ثانية وأرض الشام فأبحر من مياه فرنسا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ٨٠ ألف مقاتل بسلاحهم ومعداتهم بقيادة ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا وفى طريقهـــا لمصر مرت بجزيرة قبرص ثم اقلعت الى دمياط فصادفتها ريح عاصفة جنحت بسبعمائة سفينة منها الى شواطىء الشام •

وكان ملك صقلية (الملك فردريك الثانى) صديقا للمصريين منذ عهد الملك الكامل فأرسل خبر الحملة الفرنسية للملك الصالح نجم الدين أيوب المقيم بالشام عندئذ فعاد الملك الصالح نجم الدين الى مصر رغم مرضه ونزل عند قرية اشموم طنـــــاح فى المحـــــرم عام ٦٤٧ هـ (ابريل عام ١٢٤٩) وامر بحشد القوات والجــــنود ومعداتهم واسلحتهم بدمياط وملأها بالمئونة حتى اذا طال بها الحصار امكنها أن تقاوم لأن سبب تسليمها فى المرة السابقة هو قلة المئونة ـ وأمر نائبه فى القاهرة الأمير حسام الدين بن ابى عـــــلى بتهجير

الأسطول وإرساله لدمياط فتحرر على عدة دفعات ثم أرسل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ يقود جيشا كبيرا ليعسكر في البر الغربي لدمياط ليمنع نزول الفرنج وهكذا نجد الملك الصالح نجم الدين يحاول كل جهده في الدفاع عن دمياط مستفيدا من تجارب حصارها السابق . وفي صفر سنة ٦٤٧ هـ (الموافق يونيه عام ١٢٤٩ م) وصلت سفن الفرنسيين فشهدوا كافة الجيوش المصرية على الشاطىء وراعتهم بريق أسلحة العسكر وكثرة خيولهم وجنودهم ففزعوا وتملكتهم الرهبة ووصفت حوليات مؤرخ الحملة الموقف قائلا (وصل الملك أمام دمياط فوجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطىء كانت جميلة للناظرين وذلك أن أسلحة السلطان قد صنعت من ذهب فكانت الشمس تشرق على هذه الأسلحة فتزيدها بريقا ولمعانا وكانت الجلبة التي تحدثها صنوجهم وأبواقهم الشرقية تدخل الرعب في قلوب الذين يسمعونها) .

واستطاع الفرنسيون انزال قواتهم بعيدا عن موقع المصريين .

وكانت بدأ المعركة ـ جيش المصريين في البر الغربي كبير وافر العدد ودمياط على الشاطىء الشرقي مسورة شحنت بالجنود والأسلحة والمئونة . والملك الصالح نجم الدين أيوب مريض في أشموم طناح وكان قد قام بما يمكن من تدبير واعداد كاف لسحق قوات الفرنسيين وإذلالها .

الفتنة : ولكن كما حدث في مؤامرة ابن المشطوب في عهد

الملك الكامل حدث في هذه الحملة أيضا حيث أرسل الأمير فخر الدين الحسام الزاجل يحمل نبأ وصول القوات الفرنسية للسلطان وتعددت رسائله ولم يأته رد السلطان فاعتقد أن السلطان قد مات فانسحب بجنوده ليلا من الشاطىء الغربي وعبر الجسر المقام بعبور قواته لدمياط وسار جنوبا متجها لمعسكر السلطان في أشموم طناح ولم يحطم الجسر بعد عبور قواته .

رأى أهالي دمياط الجيش ينسحب مسرعا ففزعوا وعمتهم الفوضى فخرجوا من المدينة تاركين أموالهم وديارهم حفاة عراة نسائهم وأولادهم وفروا هاربين في اتجاه الجنوب .

ووجد الفرنسيون في الصباح معسكر المصريين خاليا فارسلوا لاستطلاع الأمر فوجدوا الجسر قائما ودمياط خاوية من الجنود والأهالي فدخلها الجيش الفرنسي دون حرب وكانت مشحونة بالعتاد والسلاح والمؤن .

وعندما بلغ السلطان الصالح ما فعله فخر الدين ومن معه من القواد غضب غضبا شديدا وأنبه على عمله وشنق خمسين أميرا من امراء الكنانة المتولين الدفاع عن دمياط وكاد يأمر بشنق فخر الدين .

لو سار لويس في هذه اللحظة نحو الجنوب والمصريون في ارتباكهم وذعرهم لتغير ما سطره التاريخ ولكنه ظل في دمياط ستة أشهر ينتظر بقية الحملة السبعمائة التي جنحت لأرض الشام وكانت

هذه فرصة للمصريين لاعادة تنظيم قواتهم واستعادة جأشهم وتمالك شعورهم وكان المرض يشتد بالملك يوما بعد يوم ومع ذلك فالموقف يعطيه قوة وشجاعة فقرر ان يتراجع مع جيشه الى مدينة المنصورة فالنيل يحسبها غربا وبحر أشموم طناح يفصل بينها وبين قوات الفرنج الوافدة من الشمال فحصن المصريون المنصورة وأصلحوا السور المحيط بها وقام بهذا العمل الجنود والشعب رجالا ونساء كبارهم وصغارهم ويقول المقريزى : (وقدمت الشوانى (سفن كبيرة) المصريه بالعدد الكامله والرجاله (المشاة) وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحى ووصلت عربان كثيره جدا وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم) •

ومات السلطان الملك الصالح ليله الاثنين النصف من شعبان سنه ٦٤٧ هـ بعد ان شهد المعركه وهو فى فراش الموت مدة تسعه أشهر بمنتهى الحزم •

وقد أخفت زوجته (شجرة الدر) خبر موته عن الجنود وكانت تدخل الأوراق لخيمته وتخرج مختومه بخط يشبه خطه ، كما أمرت أن يحضر الأطباء لخيمته يوميا كما كانوا يعودونه ونقلت جثته سرا الى قلعه الروضه بالقاهرة ، وعهدت الى الامير فخر الدين بقيادة الجيش وأرسلت الى توران شاه ابن الملك المتوفى وكان بالشام تستدعيه وبهذا أنقذت شجرة الدر الموقف العصيب وتجنبت الفتن •

وزحف الفرنسيون من دمياط تجاه الجنوب وعسكروا شمال

بحر أشموم طناح قبالة معسكر المصريين وبدءوا في تحصين معسكرهم ، وحفروا حوله خندقاً وأقاموا الأسوار ونصبوا المجانيق ، ورتبوا حرسه قريبة منهم في الليل ، وبدأت المناوشات بين الطرفين ، وأغار البدو والمصريون كل ليلة ليخطفوا الفرنج أو يقتلوهم .

أمر لويس باقامة جسر على بحر أشموم لتعبره جنوده لتصل معسكر المصريين ، وما كاد يبدأ العمل حتى أمطرهم المصريون وابلاً من النيران ، فقر انشغاله فأمر الملك لويس باقامة برجين يزودهما بالقذائف لحماية عماله ، وبدأ عمل الجسر ولكن المصريين حفروا من شاطئهم ، فوسعوا الفجوة التي يلزم اقامة الجسر عليها ، ويقول المؤرخ جوانفيل (كانوا يسدون عليها في يوم واحد ما كنا نحفره في ٣ أسابيع لأن المصريين يحفرون تحت ستائرهم ويعالجونه فيقذفون الفرنجة والابراج بقذائف من النار الاغريقية فزعزعت أفئدتهم) ويصف جوانفيل ذعرهم أمام هذا السلاح الخطير فقال :ـ

قال والتر كونتييه : (أيها السادة نحن في خطر داهم ، لأن العدو وضعوا النار نحو أبراجنا ، وبقينا نحن في أماكننا لأتانا الموت من كل مكان ، ولو أننا غادرنا مراكزنا التي استودعنا عليها للحقنا العار ، ولا ينقذنا من هذا الخطر الداهم الا الله ... فنصيحتي اليكم أن نخر سجدا كلما صوبوا هذه النار نحونا ، لنبتهل الى الله سبحانه وتعالى أن ينجينا من هذا الخطر) . ويقول جوانفيل في وصف الرعب الذي تملك الملك لويس :ـ

(وكانت النار ترسل فى انطلاقها الأضواء الباهـــره التى تملأ رحاب المعسكر ، فيبدو كأننا فى وضح النهار ، ولقد صوب العـــدو النار نحونا هذه الليله ثلاث مرات كما أطلقوهـــا من قسيهم اربع مرات ؛ وكان الملك القديس كلما سمع أن النار الاغريقيه قد صوبت نحونا انتصب واقفا على سريره ورفع يديه الى السماء وابتدأ الصلاه وعيناه مخضلتان بالدموع وهو يقول : أيها الاله الطيب احفظ لى شعبى) .

هذا هو موقف المصريين : استعداد أوشك على التمام ، وتحصين قوى العدو المدنيه والمعنويه ليلا ونهارا ، ولكن النصر كما يأتى أحيانا على يد مغامر شجاع ، فقد تأتى الهزيمه على يد خائن جبان ، فإذا بخائن من البدو يدل الفرنسيين على مخاضه فى بحر أشموم يمكن للفرسان أن يعبروها بجيادهم .

أمر الملك لويس أخاه ارتوا باجتياز المخاضه بفرقه الفرسان ويشترك مع المصريين فى هجوم يشغلهم عن معسكر الفرنسيين المقابل لهم عبر بحر أشموم ، فيتمكنون بذلك من انشاء الجسر ، لتعبر جنود الفرنسيين ، حتى اذا ما اجتازوا الجسر انضمت قوة المشاة للفرسان وهجموا هجمة جامحة على معسكر المصريين .

وتلك كانت خطة الفرنسيين وانها لخطيرة ، ولكن ارتوا أخطأ فلم ينفذ ما أمر به ، فاجتاز المخاضـــــة فى ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ فبراير سنه ١٢٥٠ م ، وفاجأ المصريين بهجومه ولم يكن متوقعا من تلك

الناحية فشتت شملهم هول المفاجأة وقتل في المعركة قائد المصريين الأمير فخر الدين .

أما أرتوا فلم يقف عند الشاطىء لاتمام الجسر بل اندفع نحو المنصورة ودخلها ووصل الى قصر السلطان .

برزت لهم فرق المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس تذود عن القصر ونادى المنادى في المدينة بنداء الجهاد من فوق المآذن الله أكبر الله أكبر . وسرت الرجفة في الرجال مذا بقى لهم ، العدو يقتحم عليهم مدينتهم ، ويأخذ بلادهم مدينة تلو أخرى ، حي على الجهاد ؛ فالموت أولى من حياة الهزيمة ، وسرى النداء في المدينة فقاتل الجند دفاعا عن القصر ، وهزموا الفرنسيين الذين ارتدوا راجعين فارين ، فوجدوا الأهالى نساء ورجالا قد سدوا الطرقات وأقاموا المتاريس وجعلوا من منازلهم حصونا يقذفون من نوافذها على الفرنسيين كل ما أمكنهم القاؤه من سهام وحجارة ، وانتهت معركة الجيش والشعب في المنصورة بابادة فرقة الفرسان جميعا وفي مقدمتهم ارتوا الذى قتل بيد بيبرس .

وبينما كان جنود الفرنسيين يسرعون في اقامة الجسر اذ ظهر لهم فرسان العرب عائدين من المنصورة ، فأدركوا أن فوتهم قد بادت فتملكهم الذعر ، وأخذ الجنود الفرنسيون يلقون بأنفسهم في البحر ليعودوا الى معسكرهم ، وعاد كل فريق الى موقعه قبل عبور المخاضة المصريون في شاطىء ، والفرنسيون في الشاطىء المقابل ، وحضر

وزال شاه واستقر فى قصر السلطان بالمنصورة ، ولجأ الى الحيلة التى فعلهـــا جده الملك الكامل حينما كان يقاتل فى المكان نفسه قوات (جون دى برين) من ثلاثين عاما ، فأمر بصنع عدة سفن بالمنصورة ، وحملت مفككة على الدواب الى بحر المحلة حيث أكمل تركيبهـــا ، وملئت بالجنود والسلاح ، وقطعت بذلك السبيل على سفن الفرنسيين الآتية بعسكرهم من دمياط ؛ وكانت مفاجأة عندما أقبلت ٥٢ سفينة للفرنسيين ، فبرزت لها السفن المصرية فقتل منها وأسر حوالى الألف افرنجى ، وغنموا كل ما فيها من الأقوات ، وانقطع بهذا المدد عن الفرنج فى معسكر أشموم ، فقلت الاقوات وغلت الأسعار .

أحس لويس بالهزيمة ، وحرج موقفه وقواته فى دمياط معزولة عن معسكر أشموم طناح ، وفرسانه قد ضاعت ، وقواته تقل يوميا ، ومئونته تكاد تنفد ، فأرسل يطلب الصـــلح على اخلاء دمياط مقابل بيت المقدس ، فرفض السلطان ، فانسحب لويس الى دمياط فى المحرم سنة ٦٤٨ هـ – ابريل سنة ١٢٥٠ م – بعد أن أحرق ما لم يحمله فى عودته من عتاد ، ولكنه قبل وصوله الى فارســـكور لحقته جيوش المصريين ، وانقضت على جيشه فى هجوم العاصفة ، فقتلت معظمه حتى قيل ان عدد قتلى الفرسان ١٠ آلاف فارس ، وأسر من الفرسان والمشاة الفرنسيين والعمال حوالى المائة ألف ، وفر لويس وبعض القواد وارتقوا تلا ، وطلبوا الامان ، فوقع لويس وبعض قادته فى الاسر ، ونقل الى المنصورة وسجن بدار القاضى ابن لقمان ؛ ووكل بحراسته الطواشى صبيح .

وفى غمار هذا المجد والفرح يحدث فتنة بين توران شاه والمماليك فيقتل ، وتعين شجرة الدر ملكة على مصر ، ويقوم نائب السلطنة فى عهد الملك الصالح الأمير حسام الدين بن ابى على بالمفاوضة مع لويس ويتم الاتفاق على اطلاق سراح الملك والأسرى ، على أن يخلوا دمياط ويدفعوا أربعمائة ألف دينار للملك يؤدى نصفها قبل اطلاق سراحه ونصفها الثانى بعد وصــــولهم الى عكا ، ودفعت زوجة الملك لويس المبلغ المطلوب ، وكانت فى دمياط ورحلوا الملك وباقى جنودى [illegible] وهم كل من بقى حيا ، ودخل المصريون مدينة دمياط مهللين مكبرين فى يوم الجمعة ٣ من صفر سنة ٦٤٨ ﻫ بعد أن احتلها الفرنج مدة أحد عشر شهرا وتسعة أيام .

وبعث الوزير جمال الدين بن مطروح بلسان الحماسة المصرية الى عكا بقصيدة ساخرة قال فيها :

قــــل للفـــرنسى اذا جئتـــه　　مقالة نصح من قئول فصـــيح
أتيت مصرا تبتغى ملكهـــــا　　تحسب أن الزمر يا طبـل ريح
فســـــاقك الحين الى أدهم　　ضاق به عن ناظريك الفسـيح
وكل أصـــحابك أودعتهم　　بحســن تدبيرك بطن الضريح
وقل لهم ان أضمروا عودة　　لأخـــذ ثأر أو لفعـــل قبيح
دار ابن لقمان على حالهــــا　　والقيد باق والطواشى صــبيح

نهاية الصليبيين

رأينا أن معركة دمياط الأولى سنة ٥٦٤ هـ وبعد خمسين عاماً يقوم الصليبيون بحملة ثانية سنة ٦١٥ هـ ثم بعد ثلاثين عاماً سنة ٦٤٧ هـ يقوم الصليبيون بالمعركة الثالثة على دمياط .

وهكذا طالما كانوا في فلسطين والشام حاولوا غزو مصر ثلاث مرات وصدتهم دمياط وشعبها وحدة مصر والأقطار العربية كلها ملبية نداء الداعي للدفاع عن مهد العروبة وموطن مجدها .

لذا كان لابد من ابادة الولايات الصليبية بالشام وفلسطين لتأمن مصر غدرهم ومفاجآتهم ونقضهم العهود .

عرفنا أن عماد الدين زنكي استرد امارة الرها قبل توحيد مصر ، وقام صلاح الدين بعد معركة دمياط الأولى باسترداد بيت المقدس بعد معركة حطين ، وبعد وفاة صلاح الدين حاول الصليبيون غزو دمياط مرتين ، فباءت بالفشل ، وأسر في الأخيرة منها الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وعاد وليس معه الا مائة جندي ، فوطن العرب عزمهم على ابادة الامارات الصليبية ففي سنة ٦٦٦ هـ ١٢٦٨ م قضى الظاهر بيبرس على امارة انطاكية ، فلم يبق الا امارة طرابلس .

تولى السلطان قلاوون ولم يبق للصليبيين غير امارة طرابلس

ومدينه عكا ، فخرج لها قلاوون في جيش كثيف وسقطت طرابلس سنة ١٢٨٩ م أى ٦٩٧ هـ .

ومات قلاوون فأخذ ابنـــه الأشرف خليل راية الجهاد ونادى للاستعداد لغزو عكا ، ففتحها سنه ١٢٩١ م أى ٦٩٩ هـ بعد حصـــار ثلاثةوأربعين يوما ، وسرعان ماتساقطت المدن الصليبية : صور وصيدا وبيروت وعثليت وانطرطوس .

وعاد الأشرف خليل الى القاهرة ومعه الأسرى وأعلام الفرنج منكسه بين أفراح العرب فى القاهرة ، وفى كل مكان بعـــد أن زال كابوس الاستعمار الصليبى عن بر الشـــام ، ولم تقم لأوروبا محاوله بعدها مع العرب فى الشرق لعدة قرون ، حتى جاءوا فى لون جديد وثوب جديد باسم الصهيونية الغادرة .

ذكرى وعبرة

ذكرى لنا ولأمجادنا ليوقن النشء أننا صامدون كالصخر ضد كل معتد أثيم ، خالدون خلود الزمن ، لن ينال منا غاصب ولن يستطيع قهرنا معتد ، موقنون بالنصر مهما طال به الزمن ، عازمون على تطهير أرض فلسطين من أفاقى العالم ، ومتشردى الدنيا ، ومجرمى الأقطار الذين نزحوا الى فلسطين ، وعاثوا فيها فسادا وقتلوا الابرياء وسفكوا الدماء باسم الدين اليهودى - والدين منهم براء - يدعون حقا وهم فى الباطل يعمهون ، ويتظلمون للأمم المتحدة وهم الظالمون ، ويحلفون وهم الكاذبون ، يشردون شعبا عربيا بدعوى انهم مشردون ، والعالم فى الضلال مقيم ، ضمير ميت انعدم منه نصفة المظلوم ، فنرى بعض الدول الكبرى تمد اسرائيل بالسلاح والعتاد والمال (تماما كما كانت أوروبا تفعل مع الصليبيين) .

ولكن هل دامت دولة الصليبيين فى الشام وفلسطين ؟ لا لقد انتهت وبادت قواتهم بعد أن انفقوا الملايين من الأموال ؛ وزهقت منهم الملايين من الأرواح ذهبوا ضحية دعوى خيالية ؛ ما أشبهها بدعوى الصهيونيين اليوم .

أقول ان فى كفاح دمياط ذكرى لنا بأمجادنا .

كما ان فيه عبرة لأعدائه عبرة لاسرائيل لو أنها ستقضى عليه بعد أن تنزف الملايين من أرواح بنيها ، والملايين من أموال المستعمرين من الظالمين .

فهل تعتبر وتوفر جهدها وأرواحها ومالها وترحل كما جاءت ، أم أن التاريخ يعيد نفسه ؛ فتصر على البقاء ؛ كما فعل الصليبيون من قبل ، فما زادهم عنادهم وبقاؤهم الا زيادة خسارتهم ، وسنظل ولن قطعا نأمن على أنفسنا وديارنا من غدرهم ، ولا أمن لنا الا بزوالهم (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) ق . ك

كما ان فى ذلك عبرة للقائلين المصرين من أن الوحدة الشاملة للأقطار العربية كانت بداية تصفية الولايات الصليبية ، ولعل ذلك ما يدعو اسرائيل لاحتلال النقب ، فتفصل بذلك بين الدول العربية ومصر مخالفة بذلك قرار التقسيم الذى قدمه الكونت برنادوت سنة ١٩٤٧ لهيئة الأمم المتحدة ؛ لأنها تعلم أنه لو فتح الطريق أمام القوات المصرية لأرض الشام الداخلية ــ الأردن وسوريه ولبنان ــ لما ظلت اسرائيل أياما فى مكانها .

وعندما اتحدت سورية ومصر خمد نفس اسرائيل ، فبعد ان كانت تلتهم المنطقة المحايدة حول بحيرة طبرية لم تستطع بعد الوحدة أن تأخذ شبرا واحدا ، ثم أغراها ضعفها فحاولت أن تحتل جزءا كما كانت تفعل قبل الوحدة ، فضربت ضربا مبرحا بمدفعية العرب ، فأطاحت

بعدة قرى ، وقعت القوات المهاجمة فذهبت اسرائيل ونول الأمم المتحدة طالبة النجدة لأنها لم تستطع أن تظلم الآمنين .

والعجيب أننا لا نأخذ من هذا التاريخ عبرة ؛ فنرى فى بعض الأقطار من يستمع لوشاية الواشين ونصيحة الاعداء ؛ فيثير النزاع بين العرب بعضهم البعض ؛ بل والأدهى من ذلك أن يتآمر مع الأعداء والصهيونيين ضد مصالح بعض الأقطار العربية ؛ وما ذلك الا للبقاء فى الحكم أو للمحافظة على التاج ؛ وينسى هؤلاء ان الدنيا ساعة وتنقضى ، وأن الخلود للأعمال والكفاح وليس للأبدان والأشباح .

وان للعرب صفحات من المجد مسطورة ، وصفحات من المجد ما زالت بيضاء تنتظر من يسطر فيها بكفاحه وخلقه ونبله وتضحيته وتطوعه ، وسيسطر صفحات وصفحات وسينتصر برغم كل هذه الظروف ، ولا نعتبرها الا مظاهر ضعف تعترى بعض أجزاء أمتنا العربية لا يلبث أن يزول متى قويت هذه الأمة ولا سبيل لتقويتها الا بالتعمير .

التعمير الروحى بالدعوة للتمسك بالدين والخلق القويم وتقوية الضمير .

التعمير العقلى بالعلم فى جميع نواحيه والثقافة العامة .

التعمير المادى باستقلال كل ثرواتنا الطبيعية والمادية .

وليعلم الجميع ان الأمة القوية تكون دولة واحدة فاذا انتابتها

موجه من الضعف عتت الى أقطار مختلفه متفرقة فاذا استعدت قوتها فستلتئم فى دولة واحدة تلقائيا .

وما دمنا نسير فى طريق التعمير الروحى والعقلى والمادى فسنستقوى وستكون النتيجه الحتميه هو ان تصبح الأمه العربيه دوله واحدة .

ومن الذى سيقوم بالتعمير ؟

أنا وأنت أيها القارىء سنعمر أنفسنا ؛ ونعمر كل ما يحيط بنا دافعين عجلة التقدم لأمتنا العظيمه بكل ما وهبنا الله من قوة .

وشعب الأمه العربيه كله اليوم شعور واحد واتجاه واحد ورغبه أكيدة فى الوحدة الشامله الكامله ، لا يمنعه من تحقيقها الا أنانيه بعض الحكام وتمسكهم بالسلطه واستئثارهم بالسلطان والنفوذ ، وما هذا الا بقايا معالم الضعف والجهاله ، وستزول مع الأيام اذا داومنا التقدم ولم نخطىء السبيل ؛ والله الهادى الى سواء السبيل .

هذه الذكرى والعبرة استوحيتها من دمياط وكفاحها ضد الغزو فى القرنين الخامس والسادس الهجرى - فهل من مدكر ؟ وكم فيها من عبرة لنا ولأعدائنا : فهل من معتبر ؟ « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

المراجع :

١ ـ قصة الكفاح بين العرب والاستعمار

تأليف : محمد سعيد العريان والدكتور جمال الدين الشيال .

٢ ـ مع الأبطال تأليف : الأستاذ محمد فهمى .

٣ ـ المقريزى

٤ ـ ابن الأثير

فهرس

الصفحه	الموضوع
٣	مقـدمة
٦	الموقف في الشرق العربي في بدايـة القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميـلادى)
١٢	معركه دمياط الاولى
١٨	الفترة ما بين موقعتى دميـــاط الأولى والثـــانية من ٥٦٥ هـ ـ ٦١٥ هـ ، ١١٧٠ م ـ ١٢١٨ م
٢٦	معركة دمياط الثانية
٣٤	معركة دمياط الثالثة ٦٤٧ هـ ـ ١٢٤٩ م
٤١	نهاية الصليبيين
٤٥	ذكرى وعبرة
٤٦	المراجع

PORTLAND STATE COLLEGE LIBRARY

مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

ARABIC

PORTLAND STATE UNIVERSITY LIBRARY
5 0110 01261336 6

D165 'Abd Allāh
.A2 Dimyāṭ

PORTLAND STATE COLLEGE
LIBRARY

D
165
.A2
STORAGE

لجنة

إخترنا للجندي

العميد: سيد عبد الحميد مرسي

العقيد أ.ح: عبد الغني فرحات

المقدم أ.ح: محمود طنطاوي

محمد عطا: مقرر اللجنة

مطابع الدار القومية

١٥٢ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

العدد ٢٦ الثمن ٤ قروش